الإنسانية وصنع المكان الديمقراطي

ج. نيكولاس إنتريكين و جون هـ. تيبل

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

يدرس الجغرافيون الإنسانيون مواضيع مثل البناء الثقافي للمكان والمظاهر الطبيعية ، ورسم خرائط الحياة اليومية ، وقدرة اللغة والمعنى على خلق البيئات وتحويلها ، والمكان والهوية ، والرمزية الدينية والمظاهر الطبيعية ، والأساطير والروايات الجغرافية (لي وساموبلز، ١٩٧٨؛ آدامز وآخرون، ٢٠٠١أ). تشترك جميع هذه الاهتمامات البحثية في الاهتمام بفهم العوالم ذات المعنى التي ألفها البشر (توان، ١٩٧٦). قد يدرك الطلاب المبتدئون في الجغرافيا هذه المواضيع كجزء من مقرراتهم الدراسية وقراءاتهم ، ويتساءلون عن سبب عدم تعلمهم الجغرافيا الإنسانية . كيف يُمكن حصر توجه جغرافي ، ارتبط بالعديد من المواضيع ذات الاهتمام الحالي ، في مناقشات التاريخ الحديث لهذا المجال ؟ كيف ، على سبيل المثال ، يُلاحظ هذا التجاهل في العديد من الإعلانات عما يُسمى "التحول الثقافي" في الجغرافيا المعاصرة ؟

تتطلب الإجابة المُرضية فكريًا تحليلًا تاريخيًا يتعارض مع الأهداف التطلعية لهذا المجلد . ومع ذلك ، فإن النقاش حول قضية واحدة ، وهي طبيعة الموضوع أو الفاعل الجغرافي ، يُساعد على إلقاء نظرة ثاقبة على النسيان التخصصي الحديث للجغرافيا الإنسانية ، وفي الوقت نفسه على إدراك رواجها . قبل التطرق إلى هذا الموضوع ، من المفيد أولًا تقديم بعض المعلومات الأساسية.

الأصول

يُثير مصطلح "الجغرافيا الإنسانية" بعض الالتباس ، إذ يحمل معنى عامًا ومعنى محددًا . في استخدامها الحالي ، عادةً ما يرتبط مصطلح الجغرافيا الإنسانية بتوجه فكري محدد في الجغرافيا خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين . ومع ذلك ، يُمكن ، بمفهومه الواسع ، تطبيق المصطلح نفسه على جذور الجغرافيا البشرية الحديثة التي كانت تعاني من نقص التغذية نسبيًا في دراسة العلوم الإنسانية . ويُقال إن هذا الارتباط قائم منذ عهد ألكسندر فون هومبولت على الأقل في أوائل القرن التاسع عشر (توان، ٢٠٠٣؛ بونكسي، ١٩٨١).

كانت المصادر الرئيسية لظهورها مجددًا مؤخرًا سلسلة من المقالات المؤثرة التي كتبها يي فو توان (١٩٧٦) ، وآن بوتيمر (١٩٧٤؛ ١٩٧٦) ، وإدوارد ريلف (١٩٧٠؛ ١٩٧٧) ، وكتاب بعنوان "الجغرافيا الإنسانية : الآفاق والمشكلات" ، الذي حرره ديفيد لي وماروين ساموبلز (١٩٧٨) . تُقدم هذه الأعمال مجتمعةً لمحةً عمّا يُمكن وصفه بحركةٍ شديدة التنوع وفضفاضة البنية في جغرافيا أواخر القرن العشرين. وقد تماسكت هذه الحركة بفضل شعورٍ قويٍّ بما يُعارضها أكثر مما يُدافع عنها . وقد تشارك مؤيدوها رؤيةً مشتركةً لضيق نطاق الجغرافيا البشرية الوضعية في تلك الفترة . وقد برز التقليد التحليلي المكاني كقوةٍ ضاربةٍ في ستينيات القرن العشرين بعد ما يُسمى "الثورة الكمية" ، وكان معارضته الوحيدة هي الإرث المُضمحل والمُتقدم في السنّ للمشهد الوصفي ، والجغرافيا الإقليمية . افتقر كلا هذين التوجهين البحثيين عمومًا إلى مفهوم متين للفاعلية الفردية أو إلى اهتمام بكيفية مساهمة الجغرافيا في فهم "الوجود في العالم" (إنتريكين، 1976).

في النماذج الرياضية للتحليل المكاني ، اتخذ الفاعلون العقلانيون قرارات بناءً على معلومات دقيقة في بيئات غير متجانسة الخواص ، وهي مساحات متجانسة وخالية من المعالم ، حيث كان المتغير الوحيد هو

المسافة النسبية بين النقاط أو المواقع على المستوى . ولم تُركز الدراسات الإقليمية ودراسات المظاهر الطبيعية على الفاعلين الأفراد ، بل بحثت عن مصادر التنوع الجغرافي في أساليب حياة المجموعات الاجتماعية والثقافية . وفي سياق السبعينيات ، رأى الجغرافيون الإنسانيون أن عملهم يفتح المجال أمام مفاهيم أكثر واقعية للبشر كفاعلين جغرافيين . ومن هذا المنطلق ، رأى الإنسانيون أن جهودهم مُحررة فكريًا . جادلوا **بأن الفاعلين يعتمدون على تجاربهم ومواقفهم ومعتقداتهم ، بالإضافة إلى أحكامهم الأخلاقية والجمالية ، في اتخاذ القرارات التي تُشكل بيئاتهم** . لم يكن الفاعلون الجغرافيون مجرد جهات فاعلة اقتصادية تسعى إلى تعزيز رفاههم المادي ، بل كانوا أيضًا كائنات أخلاقية وثقافية . بعبارة أخرى ، يمكن القول إن الجغرافيين الإنسانيين قاوموا النزعات الاختزالية في الجغرافيا البشرية . لقد تحدوا ما عدوه تركيزًا مفرطًا على البساطة التحليلية التي بدت وكأنها تُبعد الجغرافيا البشرية عن التدفق الإبداعي والفوضوي للحياة اليومية.

ومع ذلك ، فقد جلب هذا الهدف المُشاد به معه تحديًا صعبًا يتمثل في العمل مع مفهوم مُعقد للفاعلية الجغرافية . وكما كتب ديفيد لي : "إن طموح وجهات النظر الإنسانية هو التحدث بلغة التجربة الإنسانية ، وإحياء المدينة وسكانها ، وتقديم القيم الشعبية التي تتقاطع مع صنع المكان وإعادة صنعه وتخصيصه ." (227: 1989) . تطلّب تحقيق هذا الهدف التركيز على الذات البشرية كمبدعة ومفسّرة للمعنى . وتجلى هذا التركيز في العمق الدلالي الذي منحه الجغرافيون الإنسانيون لمفاهيم تقليدية مثل المكان ، والإقليم ، والفضاء ، والمظاهر الطبيعية ، والطبيعة ، وفي امتداد هذه المفاهيم إلى دراسات الأدب والفن . فبينما كانت هذه المفاهيم تُشير سابقًا إلى عالم كامن من العناصر الطبيعية والثقافية ، أبرز الإنسانيون علاقتها بالمشاريع البشرية والأشخاص الذين ابتكروها . فالمعنى ليس شيئًا يُوجد في الأشياء ، بل يجب فهمه في علاقته بالأشخاص .

وهكذا، فإن المكان ، والإقليم ، والمظاهر الطبيعية ليست مجرد فئات مكانية لتنظيم الأشياء والأحداث في العالم ، بل هي عمليات في الديناميكية المستمرة للبشر الذين يتخذون من الأرض موطنًا لهم، ويخلقون عوالم من الطبيعة (توان، 1991ب). ولهذا السبب، يرتبط المعنى ، والخيال ، والفاعلية البشرية ارتباطًا وثيقًا بالجغرافيا الإنسانية . ولهذا السبب أيضًا ، غالبًا ما يُنظر إلى البحث والكتابة الإنسانية على أنهما ذاتيان نسبيًا . ويمكن فهم المشروع الإنساني في الجغرافيا كجزء مما يصفه دينيس كوسجروف في سياق آخر بأنه "تقليد جغرافي بديل" ، وهو مشروع يرتبط بـ"مشروع أخلاقي أكثر تأملًا للذات ، هدفه الأساسي هو الحكمة... التي تنبع من معرفة الذات ككائن متجسد في العالم ، حيث يُحكم الفعل بالحياة المُختبرة، بدلًا من حسابات القوة " (867: 2003) .

كانت الجغرافيا الإنسانية واحدة من حركتين فكريتين رئيسيتين في سبعينيات القرن العشرين ، انبثقتا من استياء من التحليل المكاني . أما الحركة الأخرى فكانت اهتمامًا بالأهمية الاجتماعية والسياسة ، وقد اتخذ شكله الأكثر تماسكًا في الماركسية الجديدة الهيكلية (هارفي، 1973؛ دنكان ولي، 1982). وقد سعى كلا التحديين للأرثوذكسية السائدة في الجغرافيا البشرية إلى دمج واقع بشري أكثر تعقيدًا مما كان واضحًا في نماذج التحليل المكاني . يُنظر إلى الجغرافيا الإنسانية على أنها الأقل نظريةً وسياسةً من بين الحركتين ، وهي وجهة نظر ليست خاطئة ، ولكنها غالبًا ما بالغت في تقديرها لدرجة وصفها، بشكل غير دقيق ، بأنها غير نظرية وغير سياسية .

وقد هاجم الجغرافيون الوضعيون كلًا من هذه المواقف البديلة لتقويضها المصداقية العلمية للجغرافيا البشرية في ابتعادها الواضح عن منهجيات البحث الموضوعية نحو دراسات أكثر ذاتيةً وغنيةً بالقيم (ينظر الفصل الثاني) . ويبدو أن صرامة جمع البيانات ، والقياس ، واختبار الفرضيات ، وبناء النماذج قد أفسحت

المجال لتصريحات فلسفية ودراسات "ناعمة" للتفسير والمعنى ، أو لتحليلات ذات توجه أيديولوجي . وكانت بعض هذه الانتقادات صحيحة ، لكن بعضها الآخر عكس نزعة علمية كامنة ، حيث يتم التلاعب بالعلم وتحويله من شكل من أشكال الاستقصاء إلى سلاح بلاغي . ومع ذلك ، نادرًا ما وجدت هذه الانتقادات مبتغاها ، إذ اتضح أن الجغرافيا الإنسانية في معظمها لم تتحدَّ التحليل المكاني بشكل مباشر، بل شجعت على توسيع نطاق الجغرافيا البشرية (بونكسي، ١٩٩٠). طرح الإنسانيون أنواعًا مختلفة من الأسئلة التي شددت على المعنى والقيم والتفسيرات . على سبيل المثال ، جادل الإنسانيون بأن الأفراد يختارون مساراتهم داخل المدينة ليس فقط من حيث المسافة أو الوقت أو تقليل التكلفة ، ولكن أيضًا بسبب إدراك الخطر أو الشعور بالانتماء أو الحساسيات الجمالية . فالمناطق ليست مجرد تجمعات للأنشطة الاقتصادية والتبعيات الوظيفية لفرص العمل والمساحات السكنية ، أو حتى فئات مكانية للأنشطة البشرية ، بل هي أيضًا **جزء من هوية الأفراد والجماعات ، وجزء من كيفية رؤيتهم لأنفسهم في علاقتهم بالآخرين ، وكيفية تنظيمهم لتجربتهم في الأماكن القريبة والبعيدة** .

الدراسات الجغرافية للهجرة تتجاوز مجرد دراسات المنشأ والوجهة لعوامل الدفع والجذب ؛ فهي تشمل أيضًا تجارب التعلق ، والتشرد ، والاغتراب ، والمنفى التي تُشكل الواقع التجريبي المرتبط بمغادرة الوطن . وهكذا ، يُمكن أيضًا النظر إلى تحركات الأشخاص عبر المكان من منظور تجربة المكان . وقد وجد النقاد أن الجغرافيا الإنسانية هدفٌ مُشتت . على سبيل المثال ، أكدت الجغرافيا الإنسانية التي وصفها توان (1976؛ 1986؛ 1989) على الصلة المُهملة نسبيًا بين الجغرافيا والعلوم الإنسانية ، ومُثُل التعليم الليبرالي (إنتريكين، 2001). وتمثلت رؤيته لهذه الحركة في توسيع الآفاق العلمية للجغرافيا ، بدلًا من تحدٍّ مباشر للشرعية الفكرية للنماذج المكانية . سعى توان إلى تعريف الجغرافيين بأنماط مختلفة من الخبرة وأفكار متباينة حول "الحياة الرغيدة" وبيئاتها المثالية ، إيمانًا منه بأن هذا التعريف يُسهم في فهم أعمق لتجاربنا ومعتقداتنا . وهكذا، لم يكن نهجه في الجغرافيا إمبرياليًا يسعى إلى استعمار مجالات جوهرية من التخصصات المجاورة، بل كان نهجًا يُضفي بُعدًا وعمقًا على المواضيع والمفاهيم التقليدية للجغرافيا .

لفهم الطرق التي يُغير بها البشر بيئاتهم فهمًا كاملًا ، لا يُمكن للجغرافي أن يُغفل المعاني التي أضفتها الثقافات على الطبيعة ، والقيم والأهداف التي تُشكل أفعالهم في بناء الأماكن والمظاهر الطبيعية ، أو استكشافاتهم الخيالية لبيئات أخرى محتملة . قدم جغرافيون آخرون، مثل ديفيد لي (1977) وإدوارد ريلف (1977)، حجة مختلفة نوعًا ما لدعم الجغرافيا الإنسانية كبديل للنموذج الطبيعي السائد في العلوم الاجتماعية ، وهو نموذج أكد على الوحدة المنهجية للعلوم الطبيعية والاجتماعية . **وبتقديم رؤية للجغرافيا كعلم اجتماعي تفسيري** ، سعى هؤلاء الإنسانيون إلى فتح هذا المجال أمام الصفات الفريدة للبشر كفاعلين فاعلين في العالم فيما يتعلق بمشاريعهم.

درس المؤيدون فلسفات مختلفة أكدت على الترابط الذاتي ، بما في ذلك الظاهراتية ، والوجودية ، والبنيوية ، والتأويلية . ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ في هذا السياق أن الجغرافيا ذات توجه إنساني ، بينما العلوم الإنسانية ذات الصلة ، مثل علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ، لا تحمل هذا التصنيف واسع النطاق. ولا شك أن هذا مرتبط بترسيخ التوجهات المادية في الجغرافيا التي أعاقت تطور التقاليد التفسيرية في هذا المجال (لوينثال، 1961). هذه التقاليد في تخصصات أخرى، على سبيل المثال ، الإثنوميثودولوجيا ، وعلم الاجتماع الظاهراتي ، والتفاعلية الرمزية ، والإثنوغرافيا ، وما إلى ذلك ، سبقت جميعها نظيراتها في الجغرافيا . كانت للجغرافيا بداية متأخرة في دراسة المعنى ، وبالتالي ليس من المستغرب أن تُجمع جميع أشكال الدراسات التفسيرية المختلفة تحت المظلة المفاهيمية الواسعة للجغرافيا الإنسانية .

أصبح مصطلح "الجغرافيا الإنسانية" السمة المميزة في الجغرافيا **لدراسة المعنى والخبرة** ، والتحرك نحو ما هو أبعد من الاهتمام التقليدي بربط المفاهيم بمرجعياتها نحو الاهتمام بربط المعنى بالموضوعات . وأكد اتجاه ثالث أقل شيوعًا لهذا التوجه على الروابط الوثيقة بين الإنسانية والمنظور التاريخي في الجغرافيا . وقد اتضح هذا الارتباط بشكل خاص في حجج كول هاريس (1978) المتعلقة بالعقل التاريخي ، ودعمه لاحقًا دينيس كوسجروف (1989) وستيفن دانيلز (1985) . كتب دانيلز: إذا كانت الجغرافيا الإنسانية أكثر من مجرد نقد للجغرافيا الوضعية ، فإنها تحتاج إلى قاعدة فلسفية أكثر عقلانية ، وفهم أعمق للاتفاقيات التي تُعبر من خلالها المعاني الإنسانية ، وتفسير أكثر ملاءمة لماهية المناهج الإنسانية أو ما قد تكون عليه ، وفوق كل ذلك فهم تاريخي أعمق .(1985 :155) . يرى كوسجروف أن أي مسعى إنساني هو تاريخي حتمًا ، وإلى حد ما ، تأملي لأنه يتعلق بطبيعة وأغراض الأشخاص الواعين ، إلى جانب سيرهم الذاتية الفردية والجماعية . (1989 :189) .

تشير هذه الاتجاهات المختلفة إلى أن الجغرافيا الإنسانية لم تكن استراتيجية متماسكة بقدر ما كانت روحًا مشتركة لفتح المجال أمام أشكال تحليل بديلة . وقد اتسمت صياغاتها الأولية بطابع تحرري . في كل هذا التنوع ، برزت بعض المواضيع المشتركة ، وفي مقدمتها أهمية الفرد كفاعل قصدي ، لا تتشكل أفعاله بالاحتياجات المادية فحسب ، بل أيضًا بخيال جغرافي يتضمن مُثُلًا أخلاقية وجمالية . يُمثل هذا الفاعل الجغرافي متعدد الأبعاد الإرث الأساسي للحركة الإنسانية في سبعينيات القرن العشرين . وسرعان ما تحول إلى الهدف الأبرز لمن يسعون إلى تجاوز هذا التوجه.

التسامي

أدى المسار العلمي الاجتماعي للجغرافيا الإنسانية إلى صراعات مبكرة مع أولئك الذين شككوا في الطابع الفردي والطوعي لمثل هذه الدراسات . ومن المؤكد أن النقاد سيجادلون بأن البشر ليسوا فاعلين أحرارًا في العالم ، بل هم مقيدين بهياكل اقتصادية وسياسية وثقافية تحد من إمكانيات الاختيار والفعل . من الواضح أن خيارات الحياة التي يختارها الأكاديمي الأمريكي المقيم في لوس أنجلوس تختلف اختلافًا كبيرًا عن خيارات مهاجر وافد حديثًا من المكسيك يعمل في صناعة الملابس في وسط مدينة لوس أنجلوس . من الضروري وجود نوع من التوازن بين القيد والاختيار، وقد عارض الجغرافيون الإنسانيون ومنتقدوهم هذا التوازن (جريجوري، ١٩٨١؛ دنكان ولي، ١٩٨٢).

اندمجت هذه النظريات في ما يُسمى بنقاشات "البنية والفاعلية" في ثمانينيات القرن العشرين ، عندما زعمت بدائل مثل نظرية البنيوية (ينظر الفصل 7) والواقعية النقدية (ينظر الفصل 8) أنها تُقدم مواقف يُمكن أن تُدمج اهتمام الإنسانيين بالفاعلية مع مجموعة مُنظّرة من القيود البنيوية . أكدت نظرية البنيوية على الطرق التي تتفاعل بها الأفعال والممارسات مع القيود البنيوية لتحويل وإعادة إنتاج البنى الاجتماعية . فالروتين اليومي المعتاد - مثل الذهاب إلى العمل أو المدرسة ، واختيار مكان العيش مع آخرين يُشاركونهم صفات وأذواقًا مُتشابهة ، والبقاء في المنزل لتربية الأطفال - يُعيد إنتاج وتعزيز بنى العلاقات الاجتماعية القائمة . ومع ذلك، فإن الأفعال التي درسها البنيويون تميل إلى أن تكون روتينية ومألوفة ، مع إيلاء اهتمام ضئيل جدًا لمسائل الفعل ذي المعنى أو المتعمد .

وهكذا ، فإنّ الانغماس الظاهري في الاهتمام الإنساني بالفاعلية في النظرية الاجتماعية الأوسع نطاقًا للهيكلة قد أهمل في الواقع إلى حد كبير هذا الموضوع الإنساني الجوهري . كما ركّزت الواقعية النقدية ، وهي رؤية لما هو حقيقي (الوجود) تستند إلى التزام تحليلي مسبق بكيفية عمل العالم (النظرية) ، على البنى

وتجاهلت الفاعلية إلى حد كبير . وبدا الجدل حول البنية والفاعلية وكأن كلا الطرفين يتصارعان من أجل الوصول إلى حل وسط، لكنه أصبح تدريجيًا أحادي الجانب أكثر فأكثر مع تزايد ضعف الفاعلية ذات المعنى كمفهوم نظري . وهكذا ، وعلى الرغم من اسمه ، فإنّ ما يُسمى بالجدل حول البنية والفاعلية قد قلّل من دور الفاعلية البشرية في الدراسات الجغرافية بدلًا من تعزيزه . إن الانتقال السلس الذي قام به العديد من المشاركين في هذا النقاش إلى دعم نظريات الممارسة ، سواءً كانت مستمدة من أعمال أنتوني جيدنز، أو بيير بورديو، أو مؤخرًا ، نظرية شبكة الفاعل لبرونو لاتور، ساهم بشكل أكبر في زوال الفاعل القصدي والعاطفي في الجغرافيا . فالفاعل القصدي ، الذي يُعدّ محوريًا في المنظور الإنساني في الجغرافيا ، أقل تجاوزًا من خلال التوجه نحو نظريات الممارسة ، إذ يُغمر ويُنسى في النهاية.

الإنسانية، ما قبل، وما بعد، وضد

تُعد نظرية شبكة الفاعل فريدة من نوعها بين نظريات الممارسة في إنكارها للفصل الفكري بين البشري وغير البشري (ينظر الفصل 11) . يتحدى لاتور إرث الإنسانية ، الذي يربطه بـ "الفاعل الحر، المواطن ، باني الليفياثان ، الوجه المؤلم للشخص البشري ، الآخر في العلاقة ، الوعي ، الإدراك ، التأويل ، الذات الباطنية ، الـ"أنت" و"أنت" في الحوار، الحضور مع الذات ، والتفاعل بين الذات" (1993: 136). جميع هذه المفاهيم المتعلقة بالفاعلية تبقى ، بالنسبة لاتور، غير متوازنة بشكل ميؤوس منه ، وأحادية الجانب في منحها القيمة والأهمية والقوة السببية للبشر حصريً ا، وحصرها غير البشري في عالم الأشياء والأشياء الجامد . ويزعم أن هذا التقسيم يجب التغلب عليه من أجل رؤية العالم بوضوح أكبر كما يقدم نفسه لنا في شكل شبكات وعلاقات وهجينات تتجاوز الحدود الاصطناعية المرسومة بين الثقافة والطبيعة ، عالمي الناس والأشياء . يُقدم الاحتباس الحراري ، والهندسة الوراثية ، وإزالة الغابات أمثلة على هذه الشبكات التي لا يمكن فهمها بشكل صحيح ضمن حدود التوجهات الإنسانية . وهذا موقف يُمكن وصفه بأنه ما قبل الإنسانية أو ما بعد الإنسانية ، فبالنسبة إلى لاتور (1993)، تُعد الإنسانية عنصرًا من عناصر الحداثة ، وحجته ضد كلٍّ من الحداثة وما بعد الحداثة هي أننا لم نكن يومًا حداثيين . ومن ما بعد البنيوية (ينظر الفصل العاشر) جاء هجومٌ أكثر جوهرية على الإنسانية وخطوطها العريضة لمعاداة الإنسانية .

في عصرٍ ينخرط فيه الجغرافيون في ما بعد البنيوية ، وما بعد الاستعمار، ومركزية البيئة ، في ظل النسوية الراديكالية ، تعرّضت الفاعلية المقصودة أو الذات في الحركة الإنسانية للهجوم كونها خيالًا ، وبناءً يستخدمه أولئك الذين يقدمون ادعاءات عالمية زائفة حول الإنسانية . وقد نُظر إلى هذه الادعاءات العالمية حول الحالة الإنسانية على أنها آراء جزئية للنخب الثقافية المتميزة ، التي تُعرّف بشكل مختلف حسب الجنس ، والنوع الاجتماعي ، والعرق ، والجنسية ، وغيرها من الصفات المميزة (بوندي، 1993؛ روز، 1993) . أما المواقف البديلة ، التي نوقش العديد منها بالتفصيل في أجزاء أخرى من هذا المجلد ، فهي واسعة ومتنوعة ، لكنها تشترك في اهتمام موضوعي مهم ببناء الذات . وغالبًا ما تتعارض آراؤهم حول الذات مع الذات الإنسانية التي تُوصف بشكل مختلف بأنها أوروبية المركز ، وذكورية ، وعنصرية ، وما إلى ذلك ، وترتبط بهيمنة تُخفي الاختلاف وتُسكت أصوات الأقل قوة ثقافيًا والمضطهدين .

لقد استُبدلت الذات الانعكاسية المتمركزة والفاعل الفردي القصديّ بالفاعل اللامركزيّ أو موقع الذات ، الذي تُشكّله وتشكّله القوى الاجتماعية التي تُشكّل وتُنتج الخطابات المتنافسة في الحياة الحديثة . ما يُكتسب هو برنامج قوي للذات المُشكّلة اجتماعيًا ، وما يُفقد هو الفاعل المُستقلّ القصديّ . يتجلى هذا التحول بشكل خاص في مناقشات المكان والفضاء . على سبيل المثال ، يُقدّم روبرت ساك ، في كتابه "الإنسان الجغرافيّ"

(1997) ، إطارًا نظريًا لمفهوم إنسانيّ للذات والمكان . في حجته ، المكان والذات مُكوّنان لبعضهما البعض . قد يُنظر إلى كلٍّ منهما على أنه متأثر بقوى الطبيعة والمجتمع والثقافة ، لكن الذات كفاعل مُستقلّ هي الآلية الأساسية لصنع المكان ، وبدوره يُسهّل المكان الفاعل ويُقيّده . تُحوّل أفعال الأفراد والجماعات في صنع الأماكن البيئات ، بدءًا من مجرد فعل الاستهلاك وصولًا إلى الأفعال الأكثر تأثيرًا والأوسع نطاقًا التي تقوم بها الجهات الجماعية ، مثل المجتمعات والشركات والحكومات .

يُدرك الجغرافي الإنساني الطبيعة الاجتماعية أو البشرية لهذه الأماكن ، ولكنه لا يُصوّر هذا العالم من منظور القوى غير الشخصية للطبيعة والمجتمع وقدرة بعض الجماعات على الهيمنة على جميع المجموعات . **يُعدّ العاملون البشريون هم صانعو الأماكن الأساسيون ، سواءً كأفراد أو كأعضاء في جماعات** . وبقدر ما يُدرك الأفراد أدوارهم ومسؤولياتهم كصانعي أماكن ، فإنهم يكونون عوامل مستقلة قادرة على اتخاذ قرارات أخلاقية بشأن قيمة الأماكن فيما يتعلق بأهداف المشاريع البشرية . لا تفترض هذه القدرة وجود جهة فاعلة مستقلة غير مُقيّدة تمامًا ، ولا تُفضّل التوافق والتعاون على المقاومة والصراع .

لقد حوّلت ما بعد البنيوية في الجغرافيا مفهوم الذات الفردية من كونها مركزية إلى كونها لامركزية (بيل وثريفت، 1995؛ بيل، 1996) . في الواقع ، تتحول الذات الفاعلة والذاتية إلى مواقع ذات ، تنشأ من خلال التقاطع العرضي لخطابات متضاربة ومتعددة في كثير من الأحيان . وبالمثل ، يُعد المكان تقاطعًا عرضيًا لعمليات اجتماعية متعددة ومتضاربة أحيانًا (ماسي، 1994) . غالبًا ما طُرحت هذه الآراء من قِبل أولئك الذين يسعون إلى إدخال مفردات عرقية أو جنسانية أو جنسية أكثر وضوحًا في الخطاب الجغرافي ، والذين رأوا أن الجغرافيا الإنسانية تميل إلى تجاهل الاختلاف . وقد تبنّت ما بعد الاستعمار هذا الموقف المناهض للكونية نفسه بكونه انعكاسًا لموقف أوروبي المركز. وتحول العامل الأخلاقي المستقل للإنساني إلى ذات مبنية اجتماعيًا ، تائهة وبلا دفة في التيارات الخطابية لعلاقات القوة . جادل النقاد بأن الإنسانية وموضوعها قد تجاوزتهما بدائل تقدمية سياسيًا . ومع ذلك ، يصعب تصور التقدمية السياسية دون فاعلية أخلاقية وإحساس بالنمو الأخلاقي ، وهو أمر محوري في المشروع الإنساني ، ناهيك عن قياسه أو إثباته .

بالنسبة لمنتقدي الإنسانية الحاليين ، كل شيء هو سلطة ، والجغرافيون الإنسانيون كثيرًا ما يُنظر إلى السلطة على أنها ساذجة بشأن هذه المسألة . ومع ذلك ، لم تُتجاهل السلطة في الجغرافيا الإنسانية (توان، ١٩٨٤) . في معرض دفاعه عن تقدير إنسانية عصر النهضة ، يُشير كوسجروف إلى الغموض الجوهري في الإنسانية (وبالتالي ، الجغرافيا الإنسانية) بين طابعها التحرري والهيمنة : ولها أهمية معاصرة مباشرة ، لأن الإنسانية لطالما ارتبطت ارتباطًا وثيقًا في الممارسة بممارسة السلطة على البشر الآخرين وعلى العالم الطبيعي . وقد تطورت الجغرافيا إلى حد كبير كإحدى أدوات تلك السلطة . في الوقت نفسه ، وهنا تكمن دقة الجدلية ، تُتيح كلٌّ من الإنسانية والجغرافيا فرصةً لتقويض علاقات السلطة القائمة (١٩٨٩: ١٩٠). تعتمد هذه الفرصة جزئيًا على إنعاش الفاعلية الأخلاقية والسياسية.

الإمكانيات

ما هي الأهمية الحالية للإنسانية في الجغرافيا ؟ كما ذُكر سابقًا ، يشير فهم الإنسانية في الجغرافيا إلى لحظة محددة للغاية في تاريخ هذا التخصص ، لحظة انقضت الآن . في ذلك الوقت ، قدمت الجغرافيا الإنسانية صوتًا نقديًا ضد تضييق نطاق هذا المجال ، ورؤية بديلة للبشر كفاعلين قصديين معقدين . ومع تحول الجغرافيا بفعل التطورات في مجالات أخرى ، أصبحت هذه الرؤية الثورية جانبًا مُسلّمًا به من البحث الجغرافي . وقد كتمت أصوات أخرى ادعت لقب "الجغرافيا النقدية" الصوت النقدي والتحرري للإنسانية (آدامز وآخرون،

2001ب) . بالنسبة لهذه المجموعة ، لم يكن الإنسانيون راديكاليين بما فيه الكفاية ، بل كانوا محافظين . وقد دعمت الطبيعة اللاأيديولوجية وغير السياسية نسبيًا لكثير من الأعمال المقدمة تحت عنوان الجغرافيا الإنسانية هذا الرأي (بارنز وغريغوري، 1997).

وفي الوقت الذي كانت فيه الجغرافيا الإنسانية تتعرض للتحدي من قِبل نقادها المختلفين ، كانت الجغرافيا الماركسية الجديدة تمر بتحول من شكل هيكلي ، معادٍ بشدة للمثالية والذاتية المتصورة للجغرافيا الإنسانية ، إلى ماركسية ثقافية . وعلى الرغم من استمرار معاداتهم للمثالية والذاتية ، بدا أن العديد من ممارسيها قد أدرجوا **الاهتمام الإنساني بالمكان والهوية ، والمظاهر الطبيعية الرمزية ، وجغرافيا الحياة اليومية في أبحاثهم الخاصة** (هارفي، 1996؛ 2000). استُشهد بريموند ويليامز وهنري ليفبفر بكونهما السلفَين الفكريين لهذا التحول بعيدًا عن أشكال التحليل السابقة ، الأكثر اقتصاديةً وبنيوية . يتوقع المرء أن نجد دورًا للجغرافيا الإنسانية في هذا التحول الثقافي المزعوم ، إلا أنه غائبٌ إلى حد كبير عن هذه الأدبيات . إن البحث الجغرافي الحالي الأكثر ارتباطًا بإرث الإنسانية هو العمل في الجغرافيا الأخلاقية والأخلاق (ساك، 2003؛ بروكتور وسميث، 1999؛ سميث، 2000).

في الواقع ، لطالما أعرب الإنسانيون عن اهتمامهم بالقضايا الأخلاقية . وقد تجلى الاهتمام الحديث بالأخلاق في المقالات والكتب والأقسام الخاصة بالمجلات ، والمجلات الجديدة نسبيًا ، مثل الأخلاق والمكان والبيئة والفلسفة والجغرافيا . وفي هذا المجال الفرعي الناشئ ، تتجلى بوضوح مخاوف الإنسانيين من الفاعل القصدي المستقل والبشر كمبدعين ومفسرين للمعنى . مثل الجغرافيا الإنسانية ، تُعدّ الجغرافيا الأخلاقية مجالًا واسعًا مُنظّمًا بشكل فضفاض حول مواضيع عدة ، مثل **العدالة الاجتماعية والبيئية ، والأخلاق السياقية ، والأخلاقيات المهنية ، والفهم الجغرافي كمصدر للحكم الأخلاقي** . وقد سعى اثنان من المساهمين البارزين ، ديفيد سميث وروبرت ساك ، إلى جعل الجغرافيا أساسية لفهم الأخلاق الحديثة .

قدم سميث (2000) أخلاقيات سياقية ، والتي تدرس تأثير القرب ، المسافة ، والحدود في أخلاقيات الرعاية . ينظر ساك (2003) إلى صناعة المكان كمشاريع إنسانية تسترشد بأحكام ذاتية وذاتية للخير. يتطلب كل موقف من مواقفهم بشأن الجغرافيا الأخلاقية مفهومًا قويًا للفاعل المستقل ، مرتبطًا بدرجات متفاوتة بالمجتمع والثقافة ، ولكنه يتمتع بالقدرة على إصدار أحكام أخلاقية مستقلة . وكما يقول ساك ، **"لا تستطيع النظرية الأخلاقية إجبارنا على التصرف بشكل جيد" (2003: 31) ؛ بل إنها لا تستطيع سوى توفير الأدوات لمساعدة البشر على الاختيار الجيد ، وإحدى هذه الأدوات هي الفهم الجغرافي** . يبدو أن عمل سميث وساك وآخرين في هذا المجال يُكذب ادعاء النقاد بأن الجغرافيا الإنسانية مُعادية للنظرية إلى حد ما . في الواقع ، من خلال هذا الارتباط بالنظرية الأخلاقية ، يمكن للمرء أيضًا استعادة الجوانب السياسية العلنية للجغرافيا الإنسانية . وبشكل أكثر تحديدًا ، ترتبط الإنسانية ، وبالتالي الجغرافيا الإنسانية ، ارتباطًا وثيقًا بمفاهيم الديمقراطية الليبرالية.

يؤكد تسفيتان تودوروف هذه النقطة بقوة في دراسته لأصول الإنسانية الفرنسية ، "الحديقة الناقصة : إرث الإنسانية" ، حيث كتب: إن الديمقراطية الليبرالية ، كما تشكلت تدريجيًا على مدى مائتي عام ، هي النظام السياسي الملموس الذي يتوافق بشكل وثيق مع مبادئ الإنسانية ، لأنها تتبنى أفكار الحكم الذاتي الجماعي (سيادة الشعب) ، والحكم الذاتي الفردي (حرية الفرد) ، والعالمية (المساواة في الحقوق لجميع المواطنين) . (2002 :31) ومع ذلك ، يُحذّر تودوروف من أنه : ومع ذلك ، **فإن الإنسانية والديمقراطية لا تتطابقان** : أولًا، لأن الديمقراطيات الحقيقية بعيدة كل البعد عن التجسيد المثالي للمبادئ الإنسانية (فيمكن للمرء أن ينتقد الواقع الديمقراطي بلا نهاية باسم مثاله الأعلى)، ثم لأن التقارب بين الإنسانية والديمقراطية ليس علاقة تداخل

متبادل حصرية .(2002 :31) يُعدّ الفرد المستقل محوريًا في الإنسانية، ولكنه ليس استقلالًا يتجاهل الآخرين كما يؤكد النقاد أو يُلمّحون إليه غالبًا. تتجلى هذه النقطة في "أركان" الإنسانية الثلاثة غير القابلة للاختزال التي وضعها تودوروف : الاعتراف بالكرامة المتساوية لجميع أفراد النوع ؛ إعلاء شأن الكائن البشري المعين غيري كغاية نهائية لعملي ؛ وأخيرًا ، تفضيل الفعل المختار بحرية على الفعل المُمارس تحت الإكراه .(2002 : 232)

عند فهم الديمقراطية الليبرالية كشكل من أشكال الحياة ، بدلًا من كونها مجموعة من المؤسسات ، يمكن وصفها بأنها مشروع مستمر، يجري تنفيذه ، كسائر المشاريع الإنسانية . يكمن التوتر السياسي الأساسي في هذا الشكل من أشكال الحياة بين الفرد والمجتمع ، وبين استقلالية الفرد ومصلحة المجتمع . **تواجه المجتمعات الديمقراطية تحديًا مستمرًا يتمثل في الحفاظ على توازن سليم بين المجالين الخاص والعام، وفي خلق مجتمع مدني قابل للاستمرار**. وتُستخدم قواعد المكان للحفاظ على هذا التمييز وتحقيقه (ساك، 2003؛ كريسويل، 1996؛ 2004). ويواجه المجتمع تحديًا مستمرًا لتجنب انهيار الجماعة الناجم عن تراجع الأفراد إلى المجال الخاص . وبالمثل، تتطلب الديمقراطية السليمة يقظةً من فقدان المجال الخاص أمام الجمهور، ومن نموذج الشعب كواحد الذي يميز الأنظمة الشمولية . وهكذا ، فإن النظرية الأخلاقية الداعمة للديمقراطية تُعنى بتوجه الفرد نحو الآخر، حيث تُحدد هويته ليس فقط في المجال الخاص للأسرة وتكوين الشخصية ، بل أيضًا في مشاركة الآخرين في المجال العام .

تُسهم الجغرافيا الإنسانية ، كشكل من أشكال التربية الأخلاقية ، في تحقيق أهداف بناء المجتمع الديمقراطي من خلال تعريض الأفراد لأساليب حياة مختلفة ، وتجارب مختلفة ، وتفسيرات مختلفة للأمور . تتوسع الآفاق الأخلاقية للأفراد ، وتندمج جغرافياتهم الأخلاقية مع الجغرافيات الأخلاقية للآخرين . يربط هذا الاندماج بين الخيال الأخلاقي والجغرافي . غالبًا ما تُتخيل الأماكن قبل أن تُدرك (توان، ١٩٩٠). يؤدي إضفاء شكل مادي على العوالم الخيالية إلى عملية مستمرة من تحويل البيئات . **يمكن وصف العالم بأنه مُركّب ديناميكي من أماكن ذات مقاييس مختلفة ، تُصنع وتُهدم وتُعاد صياغتها باستمرار وفقًا للمشاريع البشرية**. قد تُصنع الأماكن عن غير قصد ، من خلال العادة والعرف ، أو عن قصد من خلال التخطيط والتدبير المُسبق. قد تُصنع بشكل غير ديمقراطي من خلال المرسوم وفرض السلطة المطلقة ، أو قد تُصنع بشكل ديمقراطي من خلال النقاش الجماعي والتخطيط والعمل والمشاركة لجميع المتأثرين بالقرارات الجماعية .

قد تُنشأ هذه المواقع من خلال اللغة الرسمية للدولة أو من خلال لغة المُهجّرين البديلة - لغة لا تظهر على الخرائط ، ولكنها تُشكّل جغرافيا للحياة اليومية في المجتمعات المهمّشة . أقوى الأدوات التي يمتلكها الأفراد في خلق الأماكن هي اللغة والخيال ، وهما جزءٌ من جوهر المنظور الإنساني في الجغرافيا (لوينثال، 1961؛ توان، 1991أ؛ رايت، 1947) . يُركّز الانبهار الحالي بالذات اللامركزية على مواقع الذات التي تُبنى من خلال تقاطع القوى الاجتماعية وتفاعل الخطابات . وتُشكّل علاقات القوة نقطة انطلاقها الجماعية ، وتُنسج موضوعات الهيمنة والقمع والتجاوز والاختلاف في الاهتمامات الجغرافية التقليدية للمكان والفضاء والمظاهر الطبيعية . تُوصف السياسة بأنها ديمقراطية ، ولكن في شكل صراعي ، حيث يُنظر إلى الديمقراطية على أنها عملية صراع مستمرة لا تنتهي ، حيث يُنظر إلى الإجماع والمجتمع بشكٍّ كأشكال خفية للهيمنة ، وطغيان الأقوياء على الضعفاء (إنتريكين، ٢٠٠٢أ).

يتناول الإنساني مسألة الجغرافيات المُصنّعة نفسها بذات مُتمركزة تُفسر العالم ، ذات تعمل كعامل مستقل نسبيًا ، تكمن قوتها في اللغة ، والقدرة على خلق المعنى ، والقدرة على التواصل والتعاون مع الآخرين . تُنتج الأماكن اجتماعيًا ، ليس كتقاطع عرضي للعمليات الاجتماعية ، بل من خلال الأفعال التعاونية للأفراد

في المجتمعات. إن الجغرافيا التي تُخلق من خلال العمل الهادف هي التي تُثير أكبر اهتمام الإنساني ، وهي التي تغيب بوضوح عن العديد من الممارسات الجغرافية المعاصرة . في ظرفيتها المتأصلة ، **تُعدّ الأماكن ، كأدوات للمشاريع الإنسانية، وسيلةً لإضفاء النظام والاستقرار على تدفق التجارب**. فالأماكن شروطٌ ضرورية للوجود الاجتماعي ، ويُعدّ صنع الأماكن وتفكيكها عنصرين أساسيين في النضال من أجل إعطاء هذا الوجود شكلاً مُحدداً . **إنها مواقع للاعتراف بالاختلاف** ، وكذلك **لتكوين الروابط الإنسانية المشتركة**. **إنها مواقع الخير والشر على حدٍ سواء** .

إن الألغاز التي تُحفّز الجغرافيين الإنسانيين جزئياً ليست تلك المتعلقة بتنافس الأفراد والجماعات على المشاريع ، أو سعي بعض الجماعات إلى فرض إرادتها على الآخرين . بل إنها تنطوي على الاعتراف بأن صنع المكان قد ينجم أيضاً عن تعاون هادف ، وأن بعض المشاريع قد تستند حتى إلى التزام مشترك بتحقيق شكل من أشكال التقدم الأخلاقي (إنتريكين، 2002ب). يصف وصف تودوروف للمشروع الإنساني أيضاً المشروع الجغرافي لصنع المكان الديمقراطي ، والذي لا يمكن أن يتوقف أبداً . يرفض حلم الفردوس الأرضي ، الذي من شأنه أن يُرسي نظامًا نهائيًا . يتصور البشر في نقصهم الحالي ، ولا يتخيل أن هذه الحالة قابلة للتغيير ؛ بل يقبل ، مع مونتين، فكرة أن حديقتهم ستبقى ناقصة إلى الأبد. (2002: 236) **لا تقدم الجغرافيا الإنسانية تصميمًا محددًا لمكان عالمي مثالي ، ولكنها تقدم وسيلة لرؤية إمكانية التقدم الأخلاقي الفردي والجماعي نحو خلق بيئات أكثر إنسانية وديمقراطية**.